أقرَّكم على دينكم ، إنما حَمْل السيف كان فقط لحماية الاختيار في الدعوة ، فأنا سأعرض الإسلام على الناس ، ومن حقى أنْ أقاتل مَنْ يعارضني بالسلاح ، من حقى أن أعرض الإسلام كمبدأ ، فمَنْ آمن به فعلى العين والرأس ، ومَنْ لم يؤمن فليَبْقَ في ذمتنا .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى بيوت أزواج النبى ﷺ ، فيقول سبحانه[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) ﴾

لسائل أنْ يسأل : ما سرُّ هذه النقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بنى قريظة إلى هذا التوجيه لزوجاته ﷺ ؟

قالوا : لأن مسألة الأحزاب انتهتْ بقوله تعالى : ﴿ وأورثكُمْ أرْضَهُمْ وديارهم وأموالهم وأرضًا لَمْ تطئوها .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] فربما طلبتْ زوجات الرسول أنْ يُمتِّعهن وينفق عليهن ، مما يفتح الله عليه من خيرات هذه البلاد ، فجاءتْ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأزْواجك .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] لتقرر أن الإسلام ما جاء ليحقق مزيَّة لرسول الله ، ولا لآل رسول الله ، حتى الزكاة لا تصح لأحد من فقراء بنى هاشم .

لكن مجيء الآية هكذا بصيغة الأمر : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأزْواجك إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] دليل على حدوث شيء منهن يدلّ على تطلعهن إلى زينة الحياة ومُتَعها . وقد رُوى عن عمر ـ رضى الله عنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٤٢٢) : « قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى ﷺ ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئا من عرض الدنيا . وقيل : زيادة في النفقة . وقيل : آذينه بغيرة بعضهن على بعض » .

أنهن اجتمعْنَ يسألْنَ رسول الله النفقة ، وأنْ يُوسِّع عليهن بعد أنْ قال ﷺ عن الكفار : لن يغزونا ، بل نغزوهم[١] وبعد أنْ بشَّرتهم الآيات بما سيُفتح من أرض جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) ﴾ [الأحزاب] يعني : ليس عندي ما تتطلَّعْن إليه من زينة الدنيا وزخرفها ، ومعنى ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] نقول : تعالَيْن يعني : أقبلْنَ ، لكنها هنا بمعنى ارتفعْنَ من العلو ، ارتفعْنَ عن مناهج البشر والأرض ، وارتقينَ إلى مناهج خالق البشر ، وخالق الأرض ؛ لأن السيادة في منهج الله ، لا في مُتَع الحياة وزخرفها .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فتعالوْا أي : ارتفعوا عن قوانين البشر وقوانين الأرض إلى قوانين السماء ؛ لأنه يُشترط فيمَنْ يضع القانون ألاَّ يفيد من هذا القانون ، وأن يكون مُلماً بكل الجزئيات التي يتعرض لها القانون والبشر مهما بلغتْ قدرتهم ، فإنهم يعلمون شيئاً ويجهلون آخر ؛ لذلك لا ينبغي أنْ يُقنِّن لهم إلا خالقهم عز وجل .

ومعنى ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أي : أعطيكُنَّ المتعة الشرعية التي تُفْرض للزوجة عند مفارقة زوجها ، والتي قال الله فيها[٢] :

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد في مسنده (٢٦٢/٤) من حديث سليمان بن صُرَد رضي الله عنه ، وفي الرواية الثانية عند البخاري « نحن نسير إليهم » . قال ابن حجر في الفتح (٤٠٥/٧) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها ، فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال ﷺ » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٩٧/١) : « قد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولاً بها ، وهو قول عن الشافعي رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير » .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] التسريح هنا يعنى الطلاق ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) ﴾ [الأحزاب] ذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمتْ إنما تتم بـالجمال أى : اللطف والرقـة والرحمة بدون بشـاعة وبدون عنف ؛ لأن التسـريح فى ذاته مفارقـة مؤلمة ، فـلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق ، وشدة العنف والقسوة .

ولك أنْ تلحظ أن لفظ الجمال يأتى فى القرآن مـع الأمور الصعبة التى تحتاج شدة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] والصبر يكون جميلاً حيـن لا يصاحبه ضَجَر ، أو شكوى ، أو خروج عن حَدِّ الاعتدال .

ورسـول الله ﷺ يعـرض على زوجـاته التـسـريح الجـمـيل الذى لا مشاحنةَ فيه ولا خصومةَ إنْ اخترْنَهُ بأنفسهن ، وما كان رسول الله ليمسك زوجة اختارتْ عليه أمراً آخر مهما كان .

وللعلمـاء كـلام طويل فى هـذه المسـألـة : هل يقع الطلاق بهـذا التخييـر ؟ قالوا : التخيير لَوْنٌ من حب المفـارقة الذى يعطى للمرأة ـ كما نقـول مثلاً : العصمـة فى يدها ـ فهى إذن تختار لنفسـها ، فإنْ قَبلت الخـيار الأول وقع الطلاق ، وإنِ اخـتارت الآخر فَـبهـا ونعمتْ ، وانتهتْ المسألة[1] .

---

(١) قال الشافـعى : التخيير كناية ، فـإذا خيَّر الزوج امرأته وأراد بذلك تخـييرها بين أن تطلق منه وبين أن تستمر فى عـصمته فاختارت نفسـها وأرادت بذلك الطلاق طُلِّقت ، فلو قالت : لم أُرد باختيـار نفسى الطلاق ، صدقت . وقال القـرطبى فى المفهم فقـال فى الحديث : إن المخيَّرة إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقاً من غير احتياج إلى نطق بلفظ يدل على الطلاق . أمـا الحافظ ابن حجـر العسـقلانى فقـال : لكن الظاهر من الآية أن ذلك بمجرده لا يكون طلاقـاً ، بل لابد من إنشـاء الزوج الطلاق لأن فـيهـا ﴿ فتعالين أُمتِّعْكُنَّ وأُسرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أى : بعد الاختيار . [نيل الأوطار للشوكانى ٦/٢٤٢] .

وأَمْرُ الله لرسوله أن يقول لزوجاته هذا الكلام لا بُدَّ أنْ يكون له رصيد من خواطر خطرتْ على زوجاته ﷺ لَمَّا رأيْنَ الإسلام تُفْتح له البلاد ، وتُجبى إليه الخيرات ، فتطلَّعْن إلى شيء من النفقة .

وكلمة الأزواج : جمع زوج ، وتُقال للرجل وللمرأة ، والزوج لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى الفرد الذى معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة التوأم ، فهى تعنى (واحد) لكن معه مثله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ.. (٤٩) ﴾ [الذاريات] يعنى : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى وحدها زوج ، وهذه القسمة موجودة فى كل المخلوقات . وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ فى الأسلوب هنا أن الحق سبحانه حين يعرض على رسوله أنْ يُخيِّر زوجاته بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة يستخدم (إنْ) الدالة على الشكِّ ، ولا يستخدم مثلاً (إذَا) الدالة على التحقيق ، وفى هذا إشارة إلى عدم المبالغة فى اتهامهن ، فالأمر لا يعدو أنْ يكون خواطر جالتْ فى أذهان بعض زوجاته .

وتعلمون أن سيدنا رسول الله جمع من النساء تسعاً معاً ، منهن خمسٌ من قريش ، وهُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة ابنة أبى أمية . ومن غير قريش : صفية بنت حيى بن أخطب الذى ذكرنا قصته فى الأحزاب ، ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية - ومَنْ ذهب عند التنعيم وجد هناك بئر ميمونة ، ثم زينب بنت جحش من بنى أسد ، هؤلاء هُنَّ أمهات المؤمنين التسعة اللائى جمعهنَّ رسولُ الله معاً .

فلما سألْنَ رسول الله النفقة كانت أجرأهُنَّ في ذلك السيدة حفصة بنت عمر ، وقد حدث بينها وبين رسول الله مُشَادَّة في الكلام ، فقال لها : « ألا تحبين أنْ أستدعي رجلاً بيننا ؟ » فوافقتْ ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال لها رسول الله : تكلَّمي أنت ـ يعني : اعرضي حاجتك ـ فقالت : بل تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقاً .

أثارت هذه الكلمة حفيظة سيدنا عمر ، فهاج وقام إلى ابنته فوجأها ، فحجزه رسول الله فتناولها ثانية فوجأها ، ثم قال لها : إن رسول الله لا يقول إلا حقاً ، ووالله لولا أنَّا في مجلسه ما تركتُك حتى تموتي ، فقام رسول الله من المجلس ليفضَّ هذا النزاع ، وذهب إلى حجرته ، واعتكف بها ، وقاطع الأمر كله مدة شهر[1] .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فأيُّ وَصْف أحقر ، وأقلّ لهذه الحياة من أنها دُنْيا ؟ وما فيها من مُتَع إنما هي زينة ، يعني : ترف في المظهر ، لا في الجوهر ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

ثم يعرض رسول الله على زوجاته الخيار الثاني المقابل للحياة الدنيا :

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

المتأمل جانبيْ التخيير هنا يجد أن المقارنة بينهما أمر صَعْب يوحي

(١) هذا الأمر اختلفت فيه الروايات ، فبعضها يورد هذا في حق عائشة وأبيها أبي بكر ، وبعضها الآخر في حق حفصة وأبيها عمر ، أما الأول فقد أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٠/٧٩) ، وأما الثاني فقد أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٦٨) ضمن حديث طويل . ويجوز أن الواقعة قد تكررت ، والله تعالى أعلم .

برفض التخيير بين طرفى هذه المسـألة ، فمَنْ يقبل أنْ تكون له حياة دنيا مقـابل الله ، وأن تكون له زينتهـا مقابل رسـول الله ، ثم زدْ على ذلك الدار الآخرة التى لم يُذكَر قـبالتها شيء فى الجانب الآخر ، ثم إن الحـياة الدنيا التى نعيشها حتى لو لم تُوصَفْ بأنها دنيا كان يجب أنْ يُزهد فيها .

والحق أنهن فَهمْنَ هذا النص واخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة ، ومَنْ يرضى بها بديلاً : والحمد لله

﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. (٢٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يأتى جزاء مَن اختار الله ورسوله والدار الآخرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الأحزاب] المحسنة هى الزوجة التى تعطى من الرحمة والمودة الزوجية فوق ما طُلب منها .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أنْ خـيَّر زوجات النبى ﷺ فاخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة أراد سبحـانه أنْ يُعطيهن المنهج والمبادىء التى سيـسرْنَ عليهـا فى حياتهن . ونلحظ أن آية التـخـييـر كانت من كلام النبى عن ربه ، أما هنا فالكلام من الله مباشرة لنساء النبى .

﴿ يَٰنِسَاءَ النَّبِيِّ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] فبداية المسألة ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فلمـا اختـرْن الله ورسوله والدار الآخـرة كأنهن ارتفـعْنَ إلى مسـتوى الخطاب المبـاشر من الله تعـالى ، كأنهن حقَّقْنَ المراد من الأمر السابق ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب]

كلمة ﴿ نِسَاءَ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] نعلم أنها جمـع ، لكن لا نجد لها

مفرداً من لفظها ، إنما مفردها من لفظ آخر هو امرأة[1] ، وفى اللغة جموع تُنُوسى مفردها بشهرة مفرد آخر أرقّ أو أسهل فى الاستعمال ، وامرأة أو (مَرة) يصح أيضاً من (امرؤ)[2] ، وهذه اللفظة تختلف عن ألفاظ اللغة كلها ، بأن حركة الإعراب فيها لا تقتصر على الحرف الأخير إنما تمتد أيضاً إلى الحرف قبل الأخير ، فنقول : قال امْرُؤُ القيس ، وسمعت امْرَأ القيس ، وقرأت لامْرِئ القيس .

وبعض الباحثين فى اللغة قال : إن (نساء) من النَّسْأ والتأخير ، على اعتبار أن خَلْقها جاء متأخراً عن خَلْق الرجل ، ومفردها إذن (نَسْءٌ) وإنْ كان هذا تكلفاً لا داعىَ له .

وبعد هذا النداء ﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ (٣٠) ﴾ [الأحزاب] يأتى الحكم الأول من المنهج الموجَّه إليهن : ﴿ **مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] نلحظ أن الحق سبحانه لم يبدأ الكلام مع نساء النبى بقوله مثلاً : مَنْ يتق الله منكن ، إنما بدأ بالتحذير من إتيان الفاحشة ؛ لأن القاعدة الشرعية فى التقنين والإصلاح تقوم على أن « درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » كما أننا قبل أنْ نتوضأ للصلاة نبرئ أنفسنا من النجاسة .

ومثَّلْنَا لذلك وقُلْنا : هَبْ أن واحداً رماك بتفاحة ، وآخر رماك بحجر ، فأيهما أَوْلَى باهتمامك ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على ردِّ الحجر والنجاة من أذاه ، وكذلك لو أردتَ أنْ تكوى ثوبك مثلاً وهو مُتسخ ، لا بُدَّ أن تغسله أولاً .

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : نسا] : « النِّساء ، والنِّسْوان والنُّسْوان : جمع المرأة من غير لفظه . وقال ابن سيده : والنساء جمع نسوة إذا كثُرْنَ » .

(٢) قال الليث : امرأة تأنيث امرىء : وقال ابن الأنبارى : للعرب فى المرأة ثلاث لغات ، يقال : هى امرأته ، وهى مَرْأته ، وهى مَرَته . [لسان العرب ـ مادة : مرأ] .

لذلك بدأ الحق سبحانه التوجيه لنساء النبى بقوله ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] لكن الفاحشة أمر مستبعد ، فكيف يتوقع منتهى الذنوب من نساء رسول الله ؟ قالوا : ولم لا ، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .. (٦٥)﴾ [الزمر]

ومعلوم أن رسول الله ليس مظنة الوقوع فى الشرك ، إذن : فالمعنى ، يا محمد ليس اصطفاؤك يعنى أنك فوق المحاسبة ، كذلك الحال بالنسبة لنسائه : إنْ فعلَتْ إحداكن فاحشة ، فسوف نضاعف لها العذاب ، ولن نستر عليها لمكانتها من رسول الله ، فإياكُنَّ أنْ تظننَّ أن هذه المكانة ستشفع لكُنَّ ، وإلا دخلتْ المسألة فى نطاق : إذا سرق الوضيع أقاموا عليه الحد ، وإذا سرق الشريف تركوه[1] .

إذن : منزلة الواحدة منكُنَّ ليست فى كونها مجرد زوجة لرسول الله ، إنما منزلتها بمدى التزامها بأوامر الله ، وإلا فهناك زوجات للرسل خُنَّ[2] أزواجهن واقرأ : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)﴾ [التحريم]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٩٣/٤) : « ليس المراد بقوله (فخانتاهما) فى فاحشة بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء .. قال ابن عباس : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه » .

ولك أن تسأل : هذا حكم الفاحشة المبيِّنة ، أنْ يُضاعَف لها العذاب ، فما بال الفاحشة منهن إنْ كانت غير مُبيِّنة ؟

قالوا : هذا الحكم خاصٌ بنساء النبى ﷺ ، فإن حدث من إحداهن ذنب بينها وبين نفسها فهو ذنب واحد مقصور عليها ، فإنْ كان علانيةً فهو مُضَاعف ؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن ، فإنْ ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعاً للأخريات ، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبي .

فمضاعفة العذاب - إذن - لأن الفساد تعدَّى الذات إلى الآخرين ، وأحدث قدوة سوء فى بيت النبى ، فاستحقتْ مضاعفة العذاب ؛ لأنها آذتْ شعور رسول الله ، ولم تُقدِّر منزلته وفضَّلَت عليه غيره لتأتى معه الفاحشة ، وهذا يستوجب أضعاف العذاب ، فإنْ ضاعف لها اللهُ العذابَ ضعفين فحسب ، فهو رِفْق بها ، ومراعاة لماضيها فى زوجية رسول الله .

كذلك إنْ فعلتْ إحداهن حسنة ، فلها أجرها أيضاً مُضَاعفاً ؛ لأنها فعلتْ صالحاً فى ذاتها كأيٍّ إنسانة أخرى ، ثم أعطتْ قدوة حسنة ، وأُسْوة طيبة لغيرها .

فإنْ أخذْنا فى الاعتبار حديث النبى ﷺ : « مَنْ سَنَّ سنة حسنة ، فَلَهُ أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وِزْرها ، ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »(١) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٦١/٤ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله . قال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

علمنا أن أجر الحسنة لا يُضاعف فقط مرتين ، إنما بعدد ما أثَّرت فيه الأسوة ، وفَرْق بين الضِّعْف والضُّعْف . الضِّعْف : ضِعْف الشيء أي مثله ، أما الضُّعف فهو فَقْد هذا المثل ، فهو أقلّ[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب] يعني : مسألة مضاعفة العذاب أمر يسير ، ولن تغني عنكُنَّ منزلتكُنَّ من رسول الله شيئاً ، فهذا أمر لا يسألني فيه أحد ، ولا أحابي فيه أحداً ، ولا بُدَّ أن أُسيِّر الأمور كما يجب أن تكون ، ولا يعارضني فيها أحد ، لذلك كثيراً ما تُذيَّل أحكام الحق سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾ [البقرة] فالعزة تقتضي أن يكون الحكم ماضياً لا يُعدِّله أحد ، ولا يعترض عليه أحد .

وهذا المعنى واضح في قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

---

(١) الضُّعْف والضَّعْف : خلاف القوة سواء كان في الجسد أو في الرأي والعقل . وقد قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا (٥٤) ﴾ [الروم] .

فقوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ .. (١١٨) ﴾ [المائدة] يقتضى أن يقول : فإنك غفور رحيم ، لكن الحق سبحانه عدل إلى ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] لأن الذنب الذى وقع فيه القوم ذنب فى القمة ، فى الألوهية التى أخذوها من الله وجعلوها لعيسى عليه السلام ، وهذا بمقتضى العقل يستوجب العذاب الشديد ، لكن الحق سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، يُعذِّب مَنْ يشاء ، ويغفر لمَنْ يشاء ، فإنْ غفر لهم فبصفة العزة التى لا يعارضها أحد ، فكأن المنطق أن يُسأل الله : لماذا لم تُعذِّب هؤلاء على ما ارتكبوه ؟ لذلك دخل هنا من ناحية العزة ، التى لا تُعارَض ، والحكمة التى لا تخطىء .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة الفاحشة ، وما يترتب عليها من عقاب ذكر سبحانه المقابل ، فقال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

معنى ﴿ يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : يخضع لله تعالى الخضوع التام ، ويخشع ويتذلَّل لله فى دعائه ، واختار الحق سبحانه القنوت ؛ لأنه سبحانه لا يحب من الطائع أنْ يُدِلَّ على الناس بطاعته ؛ لذلك يقول العارفون : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثتْ عزّاً واستكباراً(١) .

---

(١) هذه الحكمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى (متصوف شاذلى ، من العلماء ـ توفى ٧٠٩ هـ) ، وقد ذكر عبد العال كحيل هذه الحكمة لابن عطاء الله فى كتابه « أبو العينين الدسوقى» طبعة دار الشعب ـ ص ٧٦ .

أو ﴿ وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح ، وبالغ فى الورع حتى ذهب إلى القنوت ، وهو الخضوع والخشوع .

والنتيجة ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فالآية السابقة تقرر مضاعفة العذاب لمن تأتى بالفاحشة ، وهذه تقرر مضاعفة الأجر لمن تخضع لله وتخشع وتعمل صالحاً .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : أعددناه وجهّزناه لها من الآن ، فهو ينتظرها .

وحين تتأمل الأسلوب القرآنى فى هاتين الآيتين تطالعك عظمة الأداء ، فحين ذكر الفاحشة ومضاعفة العذاب جاء الفعل ﴿ يُضَاعَفْ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أما فى الكلام عن القنوت لله ، فقال ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل مُسْنَداً إلى الحق سبحانه مباشرة ، وكأن الحق سبحانه لم يُرِدْ أنْ يواجه بذاته فى مقام العذاب ، إنما واجه بالعذاب فقط .

ومجرد بناء الفعل ﴿ يُضَاعَفْ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] للمجهول يدل على رحمة الله ولُطْفه فى العبارة ، فالحق سبحانه يحب خَلْقه جميعاً ، ويتحبب ويتودد إليهم ، ويرجو من العاصى أنْ يرجع ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن أكثر من فرح أحدكم حين يجد راحلته وقد ضلَّتْ منه فى فلاة[1] .

وجاء فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تخافنَّ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً وسلطانى لا ينفد أبداً ، يا ابن آدم ، لا تَخْشَ من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم ، خلقتُكَ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

للعبادة فلا تلعب ـ والمراد باللعب العمل الذى لا جدوى منه ـ وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب ».

والمراد هنا لا تتعب، ولا تشغل قلبك، فالتعب يكون للجوارح، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف: « مَنْ بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له »[1] ولما رأى رسول الله ﷺ يداً خشنة من العمل قال: « هذه يد يحبها الله ورسوله »[2].

فالتعب تعب القلب، فالشىء الذى يطيقه صدرك، وتقدر على تحمُّله لا يُتعبك؛ لذلك نجد خالى الصدر من الهموم يعمل فى الصخر وهو هادىء البال، يغنى بحداء جميل ونشيد رائع يُقوِّى عزيمته، ويعينه على المواصلة، فتراه مع هذا المجهود فَرِحاً منشرحَ الصدر.

وقد فطن الشاعر العربى لهذه المسألة فقال:

لَيْسَ بحملٍ مَا أطَاقَ الظَّهر ... مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

فالمعنى: أتعب جوارحك، لكن لا تُتعب قلبك، والكَلَل والتعب لا يأتى على الجوارح إنما على القلب، فأتعب جوارحك فى العمل الجاد النافع الذى تأخذ من ثمرته على قدر حاجتك، وتفيض بالباقى على غير القادرين.

---

(١) أورده السيوطى بهذا اللفظ فى « الدرر المنتثرة » (حديث ٤٠١) من حديث أنس مرفوعاً وعزاه لابن عساكر. وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤/٦٣) من حديث ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وقال: « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم ». قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٢/٩٠): « فيه ضعف ».

(٢) مما رُوى فى هذا أن رسول الله ﷺ قال: « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٧٢) من حديث المقدام بن معديكرب.

ثم يقول : « فإنْ أنتَ رضيتَ بما قَسمتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قَسَمْتُه لكَ فوعزتى وجلالى لأسلطنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لك منها إلا ما قَسَمْتُه لك ، وكنتَ عندى مذموماً ، يا ابن آدم ، خلقتُ السموات والأرض ولم أعْىَ[1] بخلقهن ، أيُعْيينى رغيفٌ أسوقه لك .. يا ابن آدم ، لا تطالبنى برزق غد كما لم أطالبك بعمل غدٍ ، يا ابن آدم أنا لم أنْسَ مَنْ عصانى ، فكيف بمَنْ أطاعنى ؟ » .

وشاهدنا هنا قوله تعالى فى آخر الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك محب فبحقى عليك كُنْ لى مُحباً »[2] .

فربُّكَ يظهر لك بذاته فى مقام الخير وجلب النفع لك ، أما فى الشر فيشير إليك من بعيد ، ويلفت نظرك برفْق .

كما نلحظ فى أسلوب الآية قوله تعالى - والخطاب لنساء النبى ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] ولم يقل تقنت ، ثم أنَّثَ الفعل فى ﴿ وَتَعْمَلْ صَالِحًا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] فمرة يراعى اللفظ ، ومرة يراعى المعنى ، وسبق أنْ قُلْنا إن (مَنْ) اسم موصول يأتى للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر وللمؤنث .

ونقف أيضاً هنا عند وصف الرزق بأنه كريم ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الرزق كل ما يُنتفع به من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو مسكن ، أو مرافق ، وقد يأتى فى صورة معنوية كالعلم والحلم .. إلخ ، وهذا الرزق فى الدنيا لا يُوصف بأنه

---

(١) عىَّ بالأمر فهو عىٌّ وعيىٌّ : عجز عنه ولم يُطق إحكامه . [لسان العرب - مادة : عيا] .

(٢) أورد هذه القطعة من الأثر الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب . عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .